نماذج من كتابات حول الخوري بطرس التولاوي

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

مذ قَدم الخوري بطرس إلى حلب الشهباء، رُزِق من الإقبال عليه ما زاد فيه الهمّة والعناية في إتيان الأعمال الباهرة، وإبداء الفضائل السامية، وإظهار العلوم الواسعة، حتّى لم يتخلّف كبير أو صغير، من سائر المذاهب والطبقات، عن اعتباره وإجلاله، فسار ذكره مع الركبان، وأصبح ممّن يُشار إليهم بالبنان.

فتولّى تدريس اللغتين الإيطاليّة واللاتينيّة في الكُتّاب المارونيّ، فأحسن فيه التعليم والتوقيف، وأجاد في الإلقاء والتثقيف، فأصاب بعض تلاميذه السهم الفائز بهاتين اللغتين، وعُرِفوا في زمانهم بمعرفة آدابهما الجميلة.

وتتلمذ له جماعة في العلوم العالية سادوا وأفادوا، منهم المطران جرمانس فرحات، والمطران عبدالله قرألي، والمطران جبرائيل حوّا، والقسّ عبد المسيح لبيان، والقسّ عطاالله زنده، والخوري نيقولاوس الصائغ، والشمّاس عبدالله زاخر، والشمّاس مكرديج الكسيح، وغيرهم كثيرون من كبار العلماء ومشاهير الرجال الذين تركوا بعدهم التآليف العديدة النفيسة في الدين والدنيا.

ثمّ جعله المطران جرمانس من أعضاء مجلسه العلميّ، فنشط إلى التأليف في المنطق، والخطابة، والفلسفة، واللاهوت، والطبيعيّات، والإلهيّات، وما شاكلها من العلوم العالية التي أنالته من بُعْد الشهرة ما أنزلته منزلة جهابذة العلماء من الطبقة الأولى.

(...) أمّا منزلته من العلوم وغزارة المعارف فجليلة. كلّ موضوع يُلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنّه صُنْع يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه. وإذا تكلّم في فنّ من الفنون حَكَمَ فيه حُكْمَ الواضعين. وبالجملة، إنّ ما آتاه الله من قوّة الذهن، وسَعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قُدّر لغير مشاهير الرجال، وليس في الأمر مبالغة، وذلك من فضله تعالى يُفيضه على عباده كما يشاء.

وأمّا أخلاقه فحلمه عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، وسلامة القلب سائدة في صفاته، وهو كريم يبذل ما بيده، قويّ الاعتماد على الله، لا يبالي بما تأتي به صروف الدهر. وهو قليل الحرص على الدنيا وحطامها، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغائرها. وبالجملة، فضله كعلمه، والكمال لله وحده.

القسّ جرجس مَنَش المارونيّ،

من مجلّة المشرق، "الخوري بطرس التولوي الفيلسوف الشهير"، بيروت، السنة السادسة، العدد ١٧، ١٩٠٣/٩/١، ص ٧٧٤، ٧٧٦.

###

وبعد فيقول الأب الفاضل والكاهن العالم العامل، علّام الحقائق وكشّاف الدقايق، الذي مَحض من بحار العلوم أشكالها، ودَحض عن غوامض المشكلات أنواعها، والتقط من لجّ معاني كتب الله دررها وخلع على طالبيها لُبابها وعزرها، فاهتدى بنور علمه روّاده، واقتدى بمثال عمله قصّاده، أُشير به إلى الحسيب الرّزين والأريب الرصين، الخوري بطرس بن بطرس اسحق الماروني نُجاره التولاني وِجاره نزيل حلب ونذير رعيّتها[1] وأبو الملّة المارونيّة وإيكونوموس[2] بيعتها...

الناسخ القسّ لاوندس يونس سالم الحلبيّ،

من مقدّمة مخطوط: **ثلاثون تأمّلًا** رقم (٢١٩)، بخطّ الناسخ القسّ لاوندس يونس سالم الحلبيّ، نقلًا عن الأباتي بطرس فهد، **فهارس مخطوطات سريانيّة وعربيّة** ١٩٧٢، ص ٨١.

###

وكان في عهده [البطريرك يعقوب عوّاد] جملة ملافنة. أحدهم، وهو أعظمهم وأشرفهم، كوكب الشرق، وقبّة الحكمة، الخوري بطرس التولانيّ البتروني، الذائع صيته شرقًا وغربًا. وكان مسكنه مدينة حلب. وقد أفاد كثيرين بوعظه وتعليمه، والكتب التي صنّفها ونقلها من إلافرنجيّة إلى العربيّة. وكان حافظًا اللغتين العربيّة والسريانيّة على صحّتهما. وكان ذا غيرة حارّة في تخليص الأنفس، وبراعة وشجاعة زائدة بالجدل عند الأراتقة و المشاقين. وردّ كثيرين من الروم، والأرمن، والنساطرة، واليعاقبة، إلى الأمانة الكاثوليكيّة. وكان ذا هيبة واعتبار، حتّى ومن الأمم الكافرة أيضًا. ورتّب طقوس وعبادات شتّى حسنة في الكنايس. وصار له جملة تلاميذ كثيرين. منهم إثنين من الملكيّة وهما: عبدالله زاخر المشهور بالطبع (الطباعة العربيّة في الشوير لبنان)، والخوري نقولا الصايغ. هذين قد ردّهما من الهرطقة والكفر إلى الإقرار بالكنيسة الرومانيّة.

ومن طايفتنا كان له تلميذين مشهورين بالغاية (للغاية) في جبلنا اللبنانيّ. اشتهرا بالعلم والقداسة. أحدهما عبدالله قراعلي الحلبيّ، الذي أنشأ الرهبانيّة اللبنانيّة، ونظّم لها قوانين وفرايض نسكّية. وكان عابدًا متواضعًا جدًّا، بارعًا في علم الشريعة العالميّة (الفقه) والبيعيّة. ولذلك استحقّ أن يُسام مطرانًا على مدينة بيروت.

والآخر هو القّس جبرايل فرحات الحلبيّ، الذي كان من الرهبانيّة اللبنانيّة، الشهير بعلم النحو والصرف والشعر. وله مصنّفات، وكتب كثيرة صنّفها وأصلحها.

الشيخ أنطونيوس أبي خطّار العينطوريني،

مختصَر تاريخ جَبَل لُبنانُ، منشورات دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٢، ص ١١٢– ١١٤.

[1] أصله من قرية تولا (البترون) التي نُسِبَ إليها، ولكنّه قضى معظم حياته نزيل مدينة حلب، حيث علّم وألّف وخدم رعيّتها مُدافعًا عنها.

[2] إيكونوموس لفظة يونانيّة معناها رئيس كهنة.

###

دخل مدرسة رومية سنة ١٦٦٨ وهو في الحادية عشرة. قال الدبس (المطران يوسف): وتخرّج بهذه المدرسة بالعلوم والفنون ورجع إلى لبنان ملفانًا فسامه الدويهي (البطريرك إسطفان) كاهنًا وأرسله إلى حلب واعظًا، فاشتهر بعلومه حتّى كان شيوخ العلماء يستفتونه لأنّه درس الفقه وكان فيه من المبرّزين.

فيلسوف، كانت أكثر آرائه مبنيّة على أساس علميّ لأنّه كان أستاذًا في العلوم الطبيعيّة.

أنشأ مدرسة تضاهي مدارس حلب المشهورة في ذلك العصر، وتتلمذ له كثيرون فنبغوا وعُدّوا من مشاهير العلماء كالمطران فرحات، والمطران عبدالله قره علي، والشمّاس عبدالله زاخر، والخوري نيقولاوس الصايغ. وكان إلى جانب هذا يؤلّف ويعظ ويرشد.

(...) مات هذا العلّامة الكبير بعدما شيّخ وبلغ التسعين، وبحقّ نسمّيه أستاذ الطلائع.

مارون عبّود،

من **المجموعة الكاملة**، من كتاب **أدب العرب**، المجلّد الأوّل، في الدراسة، بيروت، دار مارون عبود؛ دار الثقافة، ط. ٣، ١٩٧٨-١٩٧٩، ص ٤٠٥-٤٠٦.

###

وللتعريف به وبمدرسته تعريفًا عاجلًا، أقرأ عليكم شهادة عالِمَين مارونيَّين، معاصرَين له، ذائعَي الصيت، هما إسطفان عوّاد السمعانيّ ويوسف سمعان السمعانيّ، أوردهما في المجلّد الثالث من كتابهما الضخم "فهرست مخطوطات المكتبة الفاتيكانيّة" المطبوع في روما سنة ١٧٥٩، أي بعد وفاة التولاوي بثلاث عشرة سنة. فبعد وصف مخطوط له في علم اللاهوت رقم ٢١٩ يقول السمعانيّان:
أمّا بطرس هذا فهو صاحب مؤلّفات أخرى. وهو من بلدة تولا. (والده زيتون. وبعد أن أنهى دراسة الغراماطيق والفلسفة واللاهوت في المدرسة المارونيّة في روما، عاد إلى سوريا). رسمه البطريرك إسطفان الدويهي كاهنًا وأرسله إلى مدينة حلب لإدارة كنيسة الموارنة السريان بصفة رئيس كهنة، وإيكونومس، ونائب بطريركيّ.

وهناك باشر تدريس الغراماطيق لكلّ الموادّ السريانيّة والعربيّة. وتقاطر عليه التلامذة من كلّ الطوائف المسيحيّة: مواربة، وملكيّين، ويعاقبة، ونساطرة، وأرمن. وبرع بالقلم واللسان. وهو أوّل من درّس الفلسفة واللاهوت في هذه المدينة، وردّ إلى الإيمان الكاثوليكيّ الرومانيّ الكثيرين من المنشقّين الملكيّين، والهراطقة الأرمن واليعاقبة والنساطرة، فنبذوا الانشقاق وجحدوا الهرطقة. توفّاه الله سنة ١٧٤٦. ودُفن بكلّ إجلال في كنيسة الموارنة، الكاتدرائيّة التي أقامها الله على اسم مار الياس النبيّ.

(...) وبفضل ما نفح به طلّابه من روحانيّة مُثلى، وبثّ فيهم من روح العبادة العميقة، تفجّرت الدعوات الكهنوتيّة، وصارت مدرسته إكليريكيّة صغرى.

ودرّس الفلسفة واللاهوت، فتخرّج على يده الكهنة والرهبان والأساقفة الناجحون، ورفع من مستوى الإكليروس علميًّا وروحيًّا، فكان بذاته جامعة.

(...) وقام بحركة تعريب الطقوس (... فوضع) اللغة العربيّة في المقام الأوّل وعلى طريق التجديد والانبعاث.

وهو في كلّ ما ألّف وترجم وكرز وعلّم، كان يُعِدّ النفوس لتقبّل الإصلاح الذي وجّه المجمع اللبنانيّ عام ١٧٣٦.

وقُدّر له أن يشهد حصاد ما زرعه في حياته. فجميع مؤسّسي الرهبانيّات في لبنان، الموارنة والملكيّين والأرمن، من تلامذته. تفجّرت دعوتهم على يده فتركوا سهولة العيش والغنى في حلب، إلى شظفه والفقر في جبل لبنان. فازدهرت الحياة الرهبانيّة على أيديهم. وتأسّست المدارس بالعشرات. ونشطت حركة التأليف والوعظ.

(...) أمّا الصورة التي يجب أن تبقى عن التولاوي في الأذهان فهي صورة الفيلسوف. (...).

الخوري نبيل الحاج،

من كتاب **محاضرات اللقاء الثقافيّ البترونيّ الأوّل، بطرس التولاوي ومدرسة حلب**، منشورات المجلس الثقافيّ البترونيّ، ١٩٨٥، ص ٤٨- ٥٠.

###

لا شكّ في انّ الخوري بطرس التولاوي يفرض نفسه على قارئه كفيلسوف مكّنته مواهبه الطبيعيّة من استيعاب الأفكار والنظريّات الفلسفيّة المختلفة والسائدة في زمانه، ومن السيطرة عليها وأدائها بدقّة وبراعة، ومن إعطائها إلى الآخرين بالوضوح والإقناع الكافيَين.

(...) قد يتبادر إلى الذهن بأنّ الخوري بطرس التولاوي لم يترك لنا نتاجًا فلسفيّا خاصًّا، متميّزًا، يعبّر عن شخصيّته الذاتيّة، ومُعالجًا لمعضلات زمانه ومجتمعه! فلو فرضنا صحّة هذه الملاحظة فإنّها لا تنقّص من شأنه، ولا تقلّل من فضله... لأنّ ما قام به لم يقم بمثله، ولا حتّى بدونه، آخر سواه (...). أضف إلى ذلك بأنّ شخصيّة التولاوي قد تنجلي بطريقة أوضح للذي ينظر في مؤلّفاته الأخرى، كالمواعظ مثلًا، لأنّ في مثل هذه المؤلّفات مجالًا له أوسع للتعبير عن ذاته وعن منطلقاته وقناعاته، وعلى الأخصّ عن المشاكل التي يعاني منها ببدء منه أو من مهمّاته أو من مجتمعه.

الأب توما مهنّا،

من كتاب **محاضرات اللقاء الثقافيّ البترونيّ الأوّل، بطرس التولاوي: نتاجه الفلسفيّ**، منشورات المجلس الثقافيّ البترونيّ، ١٩٨٥، ص ٥٥- ٥٦.

###

يشكّل بطرس التولاوي رمزًا لبواكير الوعي الفلسفيّ في المشرق. وتبدأ أركان هذا الوعي لديه، بالمنطق ومداخله، وتنتهي بالعلم الإلهي، مرورًا بالطبيعيّات. هذا الوعي الفكريّ اتّخذ لنفسه منهجًا وهيكليّة ذهنيّة متماسكة لمنطلق فلسفيّ واضح المعالم، في زمان ومكان كانا بأشدّ الحاجة إليه.

أمين ألبرت الرَّيحاني،

من مقدّمة كتاب **الإيساغوجي أو المدخل إلى المنطق، مخطوطة من العام ١٦٨٨**، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٤٤.

###

تَرِكَتُه الفلسفيّة عبارة عن سلسلة تآليف متناسقة، متتابعة، في كلّ أبواب الفلسفة واللاهوت. ألّف في المنطق، واللاهوت النظريّ، والفلسفة الأدبيّة، والطبيعيّات، وعلم الإلهيّات (....).

(...) ذكر عنه معاصروه أنّه كان طويل القامة. وَسَط البنية. أسمر اللون. عصبيّ المزاج. جليل المنظر. بشوشًا عند اللقاء. وكان متوقّد الذهن. قويّ الحُجّة. فصيح اللسان. حسن المحاضرة. رَحْب الصدر. ثَبْت الجَنان. صبورًا. وقورًا. مَهيبًا. عالِمًا. عاملًا. فيلسوفًا. (...).

كمال يوسف الحاج،

من **المؤلّفات الكاملة**، المجلّد الحادي عشر، **في الفلسفة اللبنانيّة** (٢)، بيت الفكر- أسسيّة كمال يوسف الحاج، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ١١/ موجز/ ٨٧١- ٨٧٢. (الطبعة الأولى لـ"موجز الفلسفة اللبنانيّة" صدرت عن مطابع الكريم عام ١٩٧٤).

###